طرائف من العصر المملوكي :

صلاح الدين الصفدي المؤرخ

الأســـتاذ محمود رزق سليم

إذا عُنينا في هذا المقال بالحديث عن صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي مؤرخاً ، فليس معنى ذلك أن هذه الصفة وحدها خصوصيته التي بها امتاز ، ولأجلها ذكر وفضل بين أعلام الأدب العربي . ذلك لأنه كان كاتباً مترسلاً له منهج ، وأديباً كيساً له ذوق ، وشاعراً قادراً ذا نزعة . وهذا إلى جانب أنه من هواة التأليف ، بمعنى أنه ذو فن في اختيار موضوعاته ، وله ولوع بتلمس مادتها من بين الغرائب التي تند عادة عن الأذهان ، أو لا تفطن إليها في هوادة ويسر . وكل خصوصية من هذه ، جديرة بالدرس والبحث والتمحيص حتى تبرُز نفاستها للعيان .

والصفدي إلى جانب هذا وذاك — مكثار في نثره وشعره وتأريخه ، لا يرضى في عمله الأدبي بالوجز المقنع أو القليل النافع ، ولم يعمل قط بتلك الحكمة التي تقول : « خير الكلام ما قلّ ودلّ » . وكأنما كان يشعر أن ليس وراء الإيجاز إعجاز ، ولا غب الاقتضاب إعجاب . وأن القول إما أن يُبقي شيئاً في ضميره ، أو يعبر عن عجزه وتقصيره . وإذا كان الأديب بعد أن يبعث خواطره مقالة باهرة ، أو ينفث مشاعره قصيدة عاصفة ، يشعر أنه لم يبعث جميع ما في فؤاده ، ولم ينفث كل ما في نفسه ، وأن شيئاً في أعماقه لا يزال يقلقه ويؤرقه ، التمسنا العذر لصلاح الدين الصفدي في هذا الإكثار الذي لم يبغ من ورائه إلا أن يبرز أكثر ما يستطيع إبرازه من خفيات خواطره ، ومدخرات نفسه ، جاهداً في أن لا يبقى في طواياها بقية يقلقه بقاؤها . — وهذا هو ما ينبغي أن يكون عليه الأديب ، حتى يمتع الناس بأكثر أدبه وفنه . وفي سبيل ذلك الإمتاع يتناسون له فنه وسقطه . وإن كان الأديب الموهوب معجباً معجزاً في إكثاره أو إقلاله .

كان الصفدي إذاً مكثاراً ، طبعه في ذلك طبع الأديب الملء لا يهدأ لسانه لهجاً بالأدب وترديداً له ، وفي نفسه مشاعر تجيش ، وفي أطوائه أحاسيس تثور . وكان له مذهب في الكتابة والشعر يلتزم فيهما أموراً وقيوداً على رأسها الجناس ، فقد كان متعصباً للجناس مخالفاً في ذلك مذهب أدباء عصره الذين كانوا بالتورية ولم يشغفوا بالجناس إلا إذا خرج مخرج التورية . وكان مواماً — كما أعتقد — بمداعبة أدباء عصره ، ومن مسالكه إلى تلك المداعبة أن يسطو على شعر أحد أنداده ، فيسرق معانيه

---

٩ — المجمجة : اشتهر عن قضاعة وهي يمنية[1] من قبائل حمير أنها تقلب الياء المشددة الأخيرة جيما وذلك لضعف الياء فقلبوها حرفا قويا وهو الجيم لكن « نقيا » من دارم من تميم كثيراً ما تقلب الياء وسطا أو آخرا مشددة أو مخففة جيما تقول في أيّل المشدد أجل وفي أزيم المخفف أزجم وفي غلامي غلامج وفي تميمي تميمج ما ذلك إلا حرصاً على إبانة الحروف ، وقد سمع في المشدد :

خالي عويف وأبو « علج » المطعمان اللحم « بالعشج »

وسمع في المخفف :

لا هم إن كنت قبلت « حجتج » فلا يزال شاحج يأتيك « بج »

ولم ترد هذه اللهجات المستكرهة في قراءة صحيحة لكتاب الله الكريم .

(للبحث بقية)

عبد الستار أحمد فراج
محرر بالمجمع اللغوي

(١) رجح جورجي زيدان في كتبه أن قضاعة من القبائل العدنانية بدون أن يبدي حجة على ترجيحه وقد فعل ذلك بعض الكتاب المحدثين أيضا . والواقع أن الاختلاف بين مؤرخي العرب قديم ولكني أرجح أنها يمنية لما يأتي :

١ — قبيلة كلب بطن من قضاعة ومعلوم أن معاوية بن أبي سفيان والأمويين كانوا يشيرون العصبية اليمنية وكانت كلب تناصر معاوية ، وقد اتفقت الكتب على أنها يمنية .

٢ — قبائل اليمن اعتادت نظام الملك والإقامة في الأراضي الخصبة ، نزحوا الى شواطىء تهامة ، ثم نزحوا منها الى أرض العراق والشام ولم يستوطنوا داخل الجزيرة اللهم إلا الأوس والخزرج الذين أقاموا بالمدينة وهي خصبة . وبطون قضاعة وأخوتها بطون كهلان انتشرت في تلك البقاع الخصبة وأسست الممالك ، وكان الملك في الشام والعراق للقضاعيين قبل الكهلانيين ، أما العدنانيون فما كانوا يعنون بالملك ولا بالاستقرار في الحضر .

أو ألفاظه ، أو يسلبه شيئاً منها ، حتى يثيره ويهيج خاطره . وفى مقدمة هؤلاء الأنداد شاعر العصر وخله الجمال بن نباتة المصرى؛ فكان من جراء ذلك كله ، أن شغل الصفدى أهل عصره وأثار ثائرة أدبائه ، بل والأدباء من بعده . فألف فيه ابن نباتة كتابه « خبز الشعير » الذى جمع فيه سرقاته من شعره . وحمل عليه ابن حجة من بعده فى خزانته ، ونعى عليه جنونه بالجناس حتى ألف فيه كتابه « جنان الجناس » . وأنشد ابن أبى حجلة المغربى يقول عن الصفدى وسرقاته موريا :

إن ابن أيبك لم ينزل سرقاته تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه جهلا فراح كلامه فى الريح

وهكذا ترى بين قدامى النقاد من لا يرحمون الأديب ، ولا يتكيسون فى نقده ، ولا يترفقون بسقطاته ، ولا يعتذرون لغثه

على أن الصفدى ، قد قدم المعذرة لنفسه بين يدى نقاده وقرائه ، عما اجترح ، فقال فى مقدمة كتابه « ألحان السواجع » ما يلى :

« وليعذر الواقف على ما هو منحط المحل ، غير راق إلى درجة الكمال بدره ، ولم تشرق شمسه فى الحمل ؛ فإن فيه أشياء لم تهذبها الروية ، وأعجلها الارتجال ، وألقاها الفكر من رأس القلم فجاءت فيه بُنَيَّات الطريق لعدم الوصول إلى ربات الخدور والحجال وليس يعاب المرء فى يوم جبنه إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس »

هذا كله كلام يقال عن الصفدى إذا كان الحديث عن كتابته الفنية أو شعره . أما إذا كان الحديث عن كتابته فى التاريخ ومؤلفاته فيه ، فإن مسلك الكلام يتغير ، ومجرى القول ينحرف . فالمؤرخ المكثار له جلاله وخطره . حقاً قد يسوق مثل هذا المؤرخ قارئه إلى شئ من الشك ، يدفعه إلى حسن النظر ودقة التمحيص ، كما قد يختلط فى قوله ، الثابت والمرذول ، بالنافع والمقبول . ولكنه ، حتى فى هذه يستطيع الباحث فيه والمعقب عليه أن يستنبط أموراً لها قوتها وقدرتها فى مجال الاستدلال التاريخى .

وقد برز فى العصر المملوكى جملة من كبار المؤرخين المكثرين الذين لم يقنعوا بالقليل ، فوضعوا فى تاريخ بلادهم وغيرها الموسوعات الجامعة . منها ما هو فى التاريخ السياسى العام ، ومنها ما هو فى تراجم الأعلام ، ومنها ما هو فى الخطط والآثار ، إلى غير ذلك . ويرى الطالع فى مستطرداتها ، طرائف جمة معجبة مطربة ، فى نظم البلاد وإدارتها وآدابها وتقاليدها ومزاج أهلها وروح مجتمعها . وتوالوا على هذا الغرار زمراً بعد زمر ، وجيلا إثر جيل . وقد كان من نصيب القرن الثامن الهجرى أن لمع فيه نجم الصلاح الصفدى مؤرخاً ، فضلا عن لمعانه أديباً وناقداً .

ولد الصفدى بصفد عام ٦٩٦ هـ أو ٦٩٧ هـ . وشرع منذ حداثته يتعلم صناعة الخط حتى مهر فيها . ومال إلى الأدب وسماع الحديث . ونبه فى الكتابة والنظم . وأخذ يطوف فى طلب العلم بين آفاق مصر والشام ، حتى برز بروزاً واضحاً بين أدباء البلدين ونهج من دونهم منهجه الخاص الذى أشرنا إلى طرف منه . وراسل وساجل وداعب وعقد لواء المحبة والصداقة بينه وبين كثيرين من أفذاذ جيله . واشتغل بالتأليف وجمع الأدب وبخاصة آثار معاصريه . وولى عدة مناصب منها : كتابة السر بحلب ، وتصدى للتدريس بجامع دمشق فى أخريات حياته ، وتوفى بها عام ٧٦٤ هـ .

وتنقسم مؤلفات الصفدى إلى نوعين : ١ — مؤلفات أدبية ٢ — مؤلفات تاريخية . وفى الحق أن من الصعب أن نفرق بين النوعين ؛ وذلك لأن كتبه الأدبية — وإن كانت فياضة بصنوف الشعر والنثر والنقد ، يروى فيها ويقرن وينقد وينوع ما شاءت له مجموعاته الفريدة — لم تخلص لوجه الأدب ، بل تتخللها السير والأخبار ، ويملؤها ذكر الحوادث وقص الوقائع . وكتبه التاريخية — وإن كانت فى صلب التاريخ وذكر حوادث الرجال وسرد أنبائهم — لم تخلص لوجه التاريخ ، بل يتخللها الكثير من الشعر والنثر . فهى مدد عظيم للأدب ، كما أنها معين فياض للتاريخ .

وكتبه التاريخية كلها فى تراجم الرجال . وهذا يدلنا على تأصل الروح الأدبية فيه ، لأن كتب التراجم تمت — عادة — إلى الأدب بصلة قوية كما تمتُّ للتاريخ . ولولا أن تراجمه تحتوى على سير الملوك والأمراء والقادة ومن لف لفهم من أهل السياسة والإدارة والحل والربط ، لعددناها بين الكتب الأدبية الخالصة . فهى بلا ريب منهل عذب لتاريخ الأدب ورجاله — وليس معنى

ذلك أن الرجل بعيد عن ميدان التاريخ الصراح . لا ! بل إننا لنشعر شعوراً قوياً — كلما تصفحنا مؤلفاته — بأصالة النزعة التاريخية فيه .

وأفضل ما تمتاز به مؤلفات الصفدي بنوعيها العناية بتراجم معاصريه وتسجيل نصوص من شعرهم ونثرهم مع نصوص من شعر المؤلف ونثره . وهكذا ترى أنها مصادر فريدة لأدب جيله وتاريخ رجاله وأن من كتب بعده في أخبار الرجال اعتمد عليها اعتماداً ملحوظاً عند حديثه عن الجيل المذكور . كما أنها تدلنا دلالة ملموسة على ذيوع الروح الأدبية فيه ، وعلى تمدد آفاقها التي سرحت إليها ، وذلك لكثرة ما سجل من تلك النصوص فيها ، مع تنويعها .

وأبرز موسوعات الصفدي التاريخية كتابه «الوافي بالوفيات» وامل الصفدي قرأ كتاب ابن خلكان (٦٨١ هـ) . « وفيات الأعيان » وهو جزآن في التراجم ، فرآه ضئيلا لم يف بتراجم كثير من الأعلام . فأحب أن يستدرك عليه ويعقب بما وسمه علمه . فألف لذلك كتابه « الوافي بالوفيات » وهو اسم متأثر بتسمية ابن خلكان غير أن فيه دلالة على فكرة مؤلفه .

وقد ذيل ابن شاكر الكتبي كتاب وفيات ابن خلكان ، بجزأين صغيرين في كتاب سماه « فوات الوفيات » أقل شأناً من وفيات ابن خلكان في كثير من خصائصه .

ولكننا لا ندري بالضبط أي الرجلين : الصفدي أم ابن شاكر سبقت إليه فكرة التعقيب والاستدراك . ونحن نعتقد أن الصفدي أسبق ، لأن ابن شاكر كلما ذكره الصفدي في «فواته» قال « رحمه الله » . ونذكر هنا — بهذه المناسبة — أن الرجلين ماتا في عام واحد هو (٧٦٤ هـ) . كما جاء في درر ابن حجر . غير أنه من الغريب أن ابن شاكر انتهى من تأليف « فواته » عام ٧٥٤ هـ . فهل مات الصفدي في هذا التاريخ أو قبله وغلط في ذلك ابن حجر ؟ أم أن إضافة « رحمه الله » إلى الصفدي من صنع النساخين أو الطابعين ؟ .

ومهما يكن من شيء ، فقد ألف الصفدي كتابه « الوافي » — وهو من أسبق مؤلفاته — ليفي فيه بتراجم الأعلام من كل صنف بدون تفريق بينهم في العصور أو الأمصار أو الفنون أو الحرف . وبلغت أجزاؤه نحو الخمسين ، بها من التراجم بين موجز ومطول . ومن سوء الحظ ، أن الأحداث بددت هذه الأجزاء وفرقت شملها ، ولو جمعت وطبعت لألقت أضواء ساطعة جديدة على أدب مصر والشام وتاريخهما .

وفي دار الكتب المصرية منه سبعة عشر جزءاً بالتصوير الشمسي عن مخطوطة . وبها أيضاً الجزء الأول في طبعة أنيقة ممتازة ، طبعت في الآستانة عام ١٩٣١ م بإشراف جمعية المستشرقين الألمانية .

وقد تحدث المؤلف في خطبة الكتاب عن الأمة الإسلامية ورجالها ومآثرهم . ونوه بالغرض من كتابه . واختتم بذكر أسماء من ألفوا في السيرة النبوية مع بيان مؤلفاتهم فيها .

واتبع الصفدي في إيراد التراجم الترتيب الهجائي . غير أنه ابتدأ بالمحمدين ثم الأحمدين تيمناً باسم الرسول عليه الصلاة والسلام . ويهمنا أن ننوه بشيئين : أولهما أن الصفدي قدم مؤلفه بمقدمة عظيمة القيمة جليلة النفع . وهي مثبتة في الجزء المطبوع . وقد رأيتها مطبوعة على حدة في كتيب ، وكان طبعها عام ١٩١٢ م بباريس تحت إشراف « إميل أمار » ومعها ترجمة لها وتعليقات عليها بالفرنسية . وتتكون هذه المقدمة من أحد عشر فصلا ، ويبدو أنه متأثر في بعض فصولها بما كتبه أبو الفداء في مطلع كتابه « المختصر » . وقد تحدث في الفصل الأول عن السنين التي أرخت بها العرب ، كموت كعب بن لؤي ، وعام الفيل . وانساق في خلاله إلى ذكر اشتغال العرب بالنجوم ، وخلق آدم وظهور الاسكندر ، وما قيل في ذلك . والطوفان وذي القرنين ، وما بين الرسلين من السنين إلى غير ذلك . وفي الثاني تكلم عن مادة « أرخ » من الناحية اللغوية وما اشتق منها وطريقة العرب في التعبير مؤرخين بالأيام والليالي . وفي الثالث تكلم عن كيفية كتابة التواريخ وتحديد الأيام . وفي الرابع تكلم عن « النسب » من الناحية الصرفية ، ثم بين أهميته التاريخية مشيراً إلى مفارقات طريفة وقعت للتشابه في صيغ النسب . وفي الخامس تكلم عن العلم والكنية واللقب ، وترتب كل منها على النسبة . والفصل السادس هو فصل هام في علم الإملاء ورسم الحروف . وتكلم في السابع عن مناهج المؤرخين في ترتيب التراجم أو الحوادث ، وعن طرق ضبطهم لحروف المعجم والمصطلحات الخاصة بذلك .

وفى الثامن تحدث عن لفظ « الوفاة » وما يشتق منها « والأجل » واختلاف المذاهب فى تحديده . وفى الفصل التاسع ، تكلم عن فوائد التاريخ من ناحية ضبطه للحوادث ، وأورد طرائف تاريخية ظهرت فيه ضرورة تحديد تاريخ كل حادثة . وتكلم فى العاشر عن أدب المؤرخ وما ينبغى له من علم وخلق . وفى الفصل الحادى عشر ذكر عدداً ضخما من كتب التاريخ وأسماء مؤلفيها . فهو سجل هام من هذه الناحية .

أما الشىء الثانى الذى أحببنا أن نشير إليه ، فهو أن المؤلف اختص معاصريه بسبعة أجزاء من أجزاء كتابه « الوافى » جعلها على حدة وسماها « أعيان العصر وأعوان النصر » وهو مؤلف ممتع جداً ، ترجم فيه الصفدى لمئات من أهل عصره سواء منهم من لقيه ومن لم يلقه . وأودع تراجمهم نصوصاً من أشعارهم أو نثارهم ، ندر أن تجدها فى سواه . فهو — فى نظرنا — أهم كتب التراجم لأعلام النصف الأول من القرن الثامن وإذا علمنا أن ابن حجر العسقلانى ألف كتابه القيم « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » فى أربعة أجزاء ، وأن مؤلف الصفدى « أعيان العصر » ثلاثة أمثاله ، بأن لنا قدره وعظيم أهميته . وأجزاء هذا الكتاب ، لا تزال مغتربة عن وطنها ، وفى دار الكتب المصرية منه ثلاثة أجزاء هى الثالث والسادس والسابع يقع كل منها فى مجلدين . وهى مصورة تصويراً شمسياً عن نسخة مخطوطة .

ومن أمتع كتبه التاريخية كتاب « نكت الهميان فى نكت العميان » . وهو مطبوع وذو موضوع طريف ، وهو الحديث عن العميان وبيان أحوالهم شخصية وغير شخصية ، وشرعية وغير شرعية ، وما يدور حولهم من نوادر وفكاهات وحوادث أدبية طريفة ، وترجمة النابهين منهم . ويحتوى الكتاب على عشر مقدمات ونتيجة واحدة . وفى المقدمات المذكورة جملة بحوث نافعة فى فنون العربية المختلفة وتعتبر المقدمة الأولى ذات قيمة فى فقه اللغة إذ بحث فيها عن مادة « العين والميم » وما يتصل بها من الحروف ، وما تدل عليه من المانى ، ورأى أن هذه المادة مهما اتصل بها من الحروف تدل على التستر أو نحوه . وبحث عن مادة « أعمى » . وتكلم عن تفضيل السمع على البصر أو العكس وفسر قوله تعالى : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » ، وقوله « وما يستوى الأعمى والبصير » . وتعرض للحديث الصحيح الخاص بقصة الأقرع والأبرص والأعمى ، الذين آتاهم الله ما يريدون ، فلم يشكره منهم إلا الأعمى . وتحدث عن بعض الأحكام الشرعية الخاصة بالعميان كالإمامة فى الصلاة ، ووجوب الجمعة إلى غير ذلك .

أما النتيجة فهى فى صلب التاريخ إذ ترجم فيها لنحو ثلثمائة وخمسين كفيفاً ، سواء منهم من ولد أعمى ، ومن كف بصره بعد ولادته . وأورد فى كل ترجمة الحوادث البارزة فى تاريخ صاحبها رشيئاً من شعره أو نثره إذا كان أديباً وهكذا .

ولهذا المؤلف خصوصيات نافعة فمنها أن فيه تراجم لأعلام معاصرة للصفدى وأنه جرى فى ضبط كثير من الأعلام مجرى ابن خلكان فى ضبطها ، أى أنه ضبط نطقها بالحروف ، وأنه حدد مواقع بعض الأماكن ، وأنه أودعه شيئاً من آثاره الأدبية وآثار بعض معاصريه .

وعلى نمط من هذا المؤلف ، أخرج كتابه « الشعور بالعور » وهو فى تراجم هذا الصنف من الرجال . ومنه مخطوطة بدار الكتب . وللصفدى كتاب « التذكرة الصفدية » فى أكثر من خمسين جزءاً ، فى دار الكتب منها خمسة مخطوطة ، فى خلالها فصل عن تاريخ الآداب العربية وفنونها ونشأتها ، وفصل آخر قيم عن ولى دمشق من أول عهد بنى العباس إلى عصر المؤلف . وهى مليئة — إلى جانب ما تفيض به من النصوص الأدبية بأخبار الأعلام وحوادثهم .

وترى هذه الروح سارية من الصفدى فى معظم مؤلفاته ، مثل كتابه « ألحان السواجع بين البادى والراجع » وهو مخطوط بدار الكتب كذلك ، وبه أخبار وسير ووقائع بجانب ما يمج به من أنباء المراسلات ونصوصها ، مما كان بين الصفدى وأنداده .

وبعد فهذا رجل من رجال العصر المملوكى ، يضيق مقال واحد عن أن يستوعب أخباره وأسفاره ، آثرنا أن ننوه هنا بإحدى خصوصياته ، لعلها تنم عن علمه وفضله ، وأدبه ونبله .

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية